

مَزَّقَ فيها جيشُ «الغازي» إرباً إرباً جيوشَ «دارا»، والتي تلاقى فيها عدد كبير من الشجعان، «التراسيون» و«الأودريزيون» والفرسان «البيونيون» والنبالون «الكريتيون» ومرترقة «أندروماك» و«الكتيبة» و«الرفاق». ولا سيما أولئك «الرفاق» الذين لا يبدل عنهم، والذين كان والد «كُلُوويه» يتحدث عنهم بألفة، مقلداً أحدهم مُبَكِّتاً الآخر، إلى أن تحين اللحظة الحاسمة من روايته، اللحظة التي يُدخل فيها سَلْفَه قائلًا «نحن»، «شارياس»، ويستمتع عندئذٍ بالتأثر الذي يقرأه في عيني سامعه.

كانت معركة «أربيل» قد جرت، كما ينبغي التذكير، قبل ذلك بعشرين جيلاً، ولكن ما هم، فليس الزمن سوى الغُمد الذي تنضج فيه الأساطير، وأسطورة «الإسكندر» أكثر من أي أسطورة أخرى، ولا سيما في (مابين النهرين)، هذه الأرض التي شهدت انتصاره ثم موته. فلقد وارته شاباً، وشاباً حفظته، عروساً أديباً بلا غضون، وظلَّ عدد أعوامه، ثلاثة وثلاثون عاماً، هو عمر الخلود. وكان هو، «الإسكندر»، من يتحكَّم بالزمان. أفلم يكن فلكتيو (بابل) قد اختاروا تاريخ موته بداية للعهد الجديد؟ ومذاك تعاقب ملوك كثيرون، بيد أنهم لم يفعلوا سوى أن حكموا في ظلِّ «المقدوني»؛ وكان أوائلهم معاونيه ثم ذريتهم، وبعد أن آل الحكم إلى «البارثيين» حرص ملوكهم على أن يُلحقوا على الدوام بأسائهم لقب «صديق الإغريق»، لكي يثبتوا هم أيضاً أنهم الحراس الشرعيون لإرث «الإسكندر» المجيد.

وإذا كان الشاهنشاه قد شعر شخصياً، بعد خمسة قرون، بالحاجة إلى التذكير بذكرى «الفتاح»، فهل بالسوسع العجب من رؤية أبي «كُلُوويه» يُنمي حصته من الأسطورة، هو الذي لم يكن يملك أدنى مظهر من مظاهر العظمة، فلا أراضي ولا ذهب ولا خيول ولا جوارٍ؟ لقد كان عجوزاً نحيفاً أصهب اللحية يهيم في منزل ضخم ولكنه خرب؛ وكان يعيش فيه وحيداً مع «كُلُوويه» التي رزقها على كبر من أمة لم يعد لها اليوم من أثر. ولم يكن الأب وابنته يشغلان من ذلك البيت غير جناح واسع جداً عليهما فوق ذلك، في حين لم